ولد سنة ٩٦٥ خمسٍ وستين وتسعمائة، وقرأ على القاضي عبد الرَّحمن الرحمي، وقرأ العربية والكشاف على السيد عُثمان بن عليّ ابن الإمام شرف الدين بشبام قبل دعوة الإمام القَاسِم، وسكن بأهله هنالك لطلب العلم. ولما دعا ابن أخيه الإمام القاسم ببلاد قارة كتب إليه فوصل، ثم توجّه بجنود فافتتح من بلاد الأمراء آل شمس الدين كثيراً، وكانوا أعضاد الوزير حسن والكخيا سنان، فما زال كذلك من سنة (١٠٠٦) إلى سنة (١٠٠٨). ثم إن جماعة من أهل قاعة غدروا به وقد كان تزوج بامرأة منهم هنالك، وتفرق عنه أصحابه ولم يبق سواه، فسعوا إلى الأتراك وأخبروهم بتفرده، فأقبلوا إليه وأحاطوا به ثم أسروه، وأدخلوه شبام فطافوا به في كوكبان وشبام على جمل، وأمير كوكبان يومئذٍ السيد أحمد بن مُحمَّد بن شَمْس الدين. ثم إنه أرسل به إلى الأتراك مع جماعة إلى الكخيا سنان، وكان في بني صريم فأمر به أن يسلخ فسلخ جلده وصبر، فلم يسمع له أنين ولا شكوى، بل كان يتلو سورة الإخلاص، وكان ذلك يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ١٠٠٨ ثمانٍ وألف. ثم إنَّ سنانا أملى جلده الشريف تبناً وأرسل به على جمل إلى صنعاء إلى الوزير حَسَن فَشهره على الدائر على ميمنة باب اليمن، ودُفن سائر جسده بجمومة من بني صريم، ثم نقل إلى خمر بأمر الإمام وقبره هنالك مشهور مزور. ثم احتال بعض الشيعة فأخذ الجلد ودفنه على خفية، وعليه ضريح هنالك وقبّة على يمين الداخل باب اليمن. ورثاه القاضي أحمد بن سَعْد الدين المَسُوري بأبيات منها: [من الطويل]

أزائـرُ هـذا الـقَـبْـر إنْ جِـئْـتَ زائـراً ... وَنِـلْـتَ بـه سَـهْـمـاً مـن الأجـرِ قَـامِـرَا[1]

وأدّيْـتَ حَـقَّ الـمُـصـطـفـى وَوَصِـيِّـهِ ... وَأهـلـيـه لـمـا زُرْتَ فـي الـلَّـه عَـامِـرَا

سَـلـيـلَ الـكِـرَامِ الـشُّـمِّ مـن آل أحـمـدٍ ... وَمـنْ كـانَ لِـلـديـنِ الـحَـنـيـفـي عَـامـرَا

٢٢١

(الإمامُ المهدي لدين اللَّه العبَّاس ابن الإمام المنصور باللَّه الحُسَيْن ابن الإمام المُتوكِّل)[2]

القاسِم بن الحُسين ابن الإمام المهدي أحمد بن الحَسَن ابن الإمام القَاسِم بن مُحمَّد. ولد في سنة ١١٣١ إحدى وثلاثين ومائة وألف، وقرأ قبل خلافته وبعدها، فَمِمَّن قرأ عليه قبل خلافته السيد العلَّامة عبد اللَّه بن لُطف الباري الكبسي. ثم كان في

(١) القامر (هنا): الرابح؛ وهو في الأصل من قَمَرَ فلان فلاناً: غلبه في لعب القمار، أو فضله في مفاخرة أو مباراة.

(٢) ترجمته في: الأعلام: ٣/ ٢٦٠.

أيام والده الإمام المنصور باللَّه رئيساً عظيماً فخيماً. ولما مات والده في سنة (١١٦١) أجمع الناس على صاحب الترجمة فبايعوه واتفقت عليه الكلمة، وبايعه من كان خارجاً عن طاعة والده كعمِّه أحمد بن المُتوكِّل. وكان إماماً فطناً ذكياً عادلاً قويّ التدبير عالي الهمة منقاداً إلى الخير، مائلاً إلى أهل العلم، محبّاً للعدل، منصفاً للمظلوم، سيوساً حازماً مُطَّلعاً على أحوال رعيته، باحثاً عن سيرة عُمَّاله فيهم، لا تخفى عليه خافية من الأحوال؛ له عيون يوصلون إليه ذلك. وله هيبة شديدة في قلوب خواصّه لا يفعلون شيئاً إلَّا وهم يعلمون أنه سينقل إليه، وبهذا السبب اندفع كثير من المظالم. وكان يدفع عن الرعايا ما ينوبهم من البغاة الذين يخرجون في الصورة على الخليفة، وفي الحقيقة لإهلاك الرعية، فكان تارةً يتألفهم بالعطاء وتارةً يرسل طائفة من أجناده تحول بينهم وبين الرعية. وعظم سلطانه في اليمن، وبعد صيته، واشتهر ذكره، وقصده أهل العلم والأدب من الجهات البعيدة لمزيد إكرامه لمن كان له فضيلة لا سيّما غرباء الديار. وكان مشتغلاً بالعلم بعد دخوله في الخلافة شغلة كبيرة لا يبرح إذا خلا ناظراً في كتاب من الكتب. وقرأ على جماعة من العلماء، وكان إذا حدث حادث من بغي باغٍ أو خروج خارجٍ عن الطاعة أهمّه ذلك وأقلقه، ولا يزال في تدبير دفعه حتى يدفعه. وله صدقاتٌ وصِلات وافرة جارية على كثيرين من الفقراء والضعفاء والقصاد والوافدين. وفيه محاسن جمة، وله سنن حسنة سنّها. وبه اندفعت مفاسد كثيرة كانت موجودة قبل خلافته. والحاصل أنه من أفراد الدهر، ومن محاسن اليمن بل الزمن. ولم يزل قاهراً لِأضداده قامعاً لحساده وأنداده، حافظاً لأطراف مملكته بقوة صولةٍ وشدة شكيمة، لا يطمع فيه طامع، ولا ينجع فيه خدع خادع، بل يتصرف بالأمور حسب اختياره ويتفرد بتدبير المهمات، وليس لوزرائه معه كلام بل يعملون ما يأمرهم به، ولا يستطيعون أن يلبسوا عليه شيئاً من أمر المملكة أو يخادعونه في قضية من القضايا. وكان له نقادة كلية في الرجال، وخبرة كاملة بأبناء دهره. وإذا التبس عليه حال شخص منهم امتحنه بما يليق به حتى يعرف حقيقة حاله. وله قدرة كاملة على هَتْكِ ستر من يتظاهر بالزهد والعفاف والانقباض عن الدنيا في ظاهر الأمر لا في الواقع، فإنه يدخل عليه من مداخل دقيقة بجودة فطنته وقوة فكرته، فيتضح له أمره ويحيط به خبراً. وله من هذا القبيل عجائب وغرائب. وما زال على الحال الجميل حتى (توفاه اللَّه تعالى) في شهر رجب سنة ١١٨٩ تسعٍ وثمانين ومائة وألف. وأيامه كلّها غُرَرٌ، ودولته صافية عن شوائب الكدر. وما قام عليه قائم إلَّا دمَّره، ولا خرج عليه خارج إلَّا قهره. وكان استقراره في جميع خلافته بصنعاء، و(مات) بها ودُفن بقبته التي أعدّها لنفسه رحمه اللَّه ورضي عنه. وبُويع عند موته مولانا خليفة العصر ولده المنصور باللَّه ربّ العالمين عليّ بن العبَّاس حفظه اللَّه. وستأتي له ترجمة

مستقلة إن شاء اللَّه تعالى. وكان وزيره الأكبر الفقيه أحمد بن عليّ النَّهْمي ما زال قائماً بالمهم من أموره وأمر أكثر بلاده إليه من أول خلافته إلى قبيل موته بقليل. وكان هذا الوزير من محاسن الزمن، له محبة للخير وإقبال على الطاعة وميل إلى أهل العلم والصلاح ومواساة الضعفاء، مع صدق لهجة وحسن اعتقاد. وكان يغضب إذا قال له قائل إنه وزير أو عظّمه أو وصفه بوصف له مدح فيه. ولم يأت بعده في مجموع خصاله مثله إلَّا الحَسَن بن عليّ حَنَش المتقدم ذكره، فإنَّه سلك طريقته، وفاقه بكثرة البذل والعطاء، ولكن لم يكن إليه من الأعمال ما كان إلى هذا، فإن الذي إلى هذا من البلاد هو غالب البلاد اليمنية. ولصاحب الترجمة أولاد، هم سادات السادات، وكل واحد منهم لا يخلو عن فضيلة، ويجمعهم جميعاً حسن الفروسية وجودة الخلق والتمسك بنصيب من العرفان، وأكبرهم عبد اللَّه، تُوفي في حياة والده. وبعده مولانا الإمام خليفة العصر المنصور باللَّه عليّ، وستأتي ترجمته. وبعده مُحمَّد، وهو من أكابر آل الإمام، وله نصيب من الكمالات وافر. وبعده القَاسِم، وهو من فحول السادات وأعيان القادات، وله مشاركة في العلم جيدة. وبعده يُوسُف، وهو حَسَن الأخلاق كريم الأعراق. وبعده أحمد، وهو أوسعهم علماً وأقواهم فهماً، له اطلاع كلّي على علم التاريخ والأدب ومعرفة بفنون من العلم ومشاركة كلّية في أنواع منه، وله شعر، وفيه رغبة إلى المباحثة. وهو كريم مطلق قليل النظير في مجموعه. وبعده إسماعيل، وهو قليل النظير في حسن أخلاقه وتواضعه وسلامة فطرته وعفافه. وهؤلاء هم الكبار من أولاد صاحب الترجمة، وهم كثيرون، وجميعهم كما قال القائل: [من البسيط]

مَنْ تَلْقَ مِنْهُم تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْل النُّجومِ التي يَسْري بها السَّاري[1]

(٢٢٢)

(السيد العبَّاس بن مُحمَّد المَغْربيّ التُّونسيّ)

قدم إلى صنعاء في سنة (١٢٠٠)، وله معرفة بعلم الحروف والأوفاق، رأينا منه في ذلك عجائب وغرائب، وأخذنا عنه في علم الأوفاق لقصد التجريب لا لاعتقاد شيء من ذلك. وكان إذا احتاج إلى دراهم أخذ بياضاً وقطعه قطعاً على صور الضربة المتعامل بها ثم يجعلها في وعاء ويتلو عليها فتنقلب دراهم. وكنت في الابتداء أظن ذلك حيلة وشعوذة، فأخذت ذلك الوعاء وفتشته فلم أقف على الحقيقة، فسألته أن يصدقني فقال: إن تلك الدراهم يجيء بها خادم من الجن يضعها في ذلك الوعاء بقدر ما جعله من قطع البياض ويكون ذلك قرضاً حتى يتمكن من القضاء فيقضي. وكان

(١) السَّاري: السَّائر بالليل.